إنسانيات عدد مزدوج 32-33، أفريل – سبتمبر 2006، ص ص. 31-60

ديار المدينة العتيقة بالمهدية: من الدار "التقليدية" إلى توافد الفئات المرفهة واكتساحها للمدينة النواة

أحمد خواجة*

> « *Cette paix, cette sainteté…, cette atmosphère d'une maison est une création tellement fragile qu'à la moindre rupture du frêle mur qui la garde, elle s'évapore* ».
> Hassan, Fathy**,** *Construire avec le peuple*, Paris, Sindbad, 1970, p 107

يهدف هذا البحث إلى توجيه مساءلات لإشكالية ما يسمى بالمدن "العتيقة" أو المدن التقليدية أو المدن "التاريخية" وتموضعها ضمن قطبي المركزة centralité[1] والتهميش من خلال دراسة حالة مدينة المهدية(الواقعة في جهة الساحل التونسي بين مدينتي سوسة و صفاقس، على بعد 200 كلم جنوب شرق العاصمة تونس).

ونظرا لاتساع الإشكالية وتشعب مسالكها وتعقد عناصرها، سنكتفي في هذه الورقة بمكوّن مورفولوجي أساسي يتشكل من خلاله فضاء المدينة العتيقة وزمانها ونعني بذلك الدار أو البيت بوصفهما نقاط أو وسائط تمفصل بين الفضاء الخاص والفضاء العام وبين العالم الداخلي لمتساكني هذه الديار والعالم الخارجي وكذلك من حيث أنهما يدلان على حدوث تحولات اجتماعية في تأليف الناس لمعيشهم اليومي وللطريقة التي يستثمرون من خلال مكان الدار ذاكرتهم الفردية العائليّة والجماعيّة.

* قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.

[1] Signoles, P., *La centralité des Médinas Maghrébines: quel enjeu pour les politiques d'aménagement urbain, dans « Insaniyat* », dossier recherches urbaines, n° 13, Janvier – Avril 2001, pp 9-44.

وسنركز خلال إدراكنا وفحصنا وتفكيكنا للإشكالية على تحقيب المراحل التي مرّت بها الدار داخل مدينة نواة هي المهدية التي تنتمي إلى طائفة العواصم المنكوبة أو المدن التاريخية أو المدن الذاكرة villes mémoires التي تتماهى اليوم أكثر مع شكل أو بنية الحي le quartier أو المقطع المديني morceau de ville والتي ولّدت بفعل الهيمنة الاستعمارية التي عرفتها بلدان المغرب العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر سيرورة تطور حضريّة "مرضيّة" يلخصها "جاك بيرك" في المثلث الشهير **مدن عتيقة** تتعايش وربما تتعارض مع **مدن جديدة** أو أوربية أو حديثة وهذا الشرخ أفرز **مدن فوضوية أو قصديرية** يحلو للبعض بتسميتها بالمدن المضادة[2].

وسأحاول أن أبيّن أن مدينة المهدية تمثل حالة خاصة وتطرح بنيتها المورفولوجية وما تفرزه من علاقات وروابط اجتماعية مدارات معرفية غير مألوفة وقع أما تجاهلها من طرف الباحثين وخبراء التصميم والتهيئة أو لم يقع التفطن إليها.

وسأنطلق من ذاكرتي الشخصية وسأحاول أن أستقرئ و أن أسائل البعض من ذكريات الطفولة التي قضيتها في مدينة المهدية النواة التي تسمّى عند عامّة الناس ب"برج الرأس" le rempart de la tête كناية على موقعها الجغرافي قرب البرج العثماني وفي مستوى مرتفع في المدينة، وأيضا كإشارة لعمقها الروحي والوجداني فهي مثل الرأس في البدن. مدينة ولدت بها وترعرعت بين أزقتها ودروبها وعشت جانبا من حياتي في ديارها. وهذه المعاشرة والمعايشة تجرني إلى اختيار مقاربة كيفية وإلى تغليب نهج السيرة الحياتية.

وهذا الاختيار بما يحمله من مخاطر ومتاهات السقوط في النظرة المحلية الضيقة le localisme الذاتية يحتّم علينا الالتزام بمنظار الموضوعاتية بالمشاركة objectivation participante والذي يفرض إجهادا يمارسه الباحث على نفسه يستثمر فيه موقعه المتميّز في نسج الظاهرة مقلّلا في ذات الوقت من سلبيات المشاركة ومضخّما ما تفترضه وضعية الملاحظة من تنقيب وتحرّي وحفر في المعلومات والبيانات والشواهد الحياتية والمعاينات اليومية.

[2] Berque, J., *Médinas, ville neuves et bidonvilles, dans* « *les Cahiers de Tunisie* », n°21-22, 1er et 2ème trimestre, 1958, pp5-42.

وسنطلق من معطى ميداني يشاهد اليوم في مدينة المهدية يتمثل في الحركية أو الديناميكية الجديدة التي تعيشها والتي أثّرت من جملة أسباب أخرى سنعود إليها لاحقا في تلك المعاملات والتفاعلات التي تخص ديارها ونقصد استقطاب بيوت المدينة لمتساكنين جدد ذوي دخل مرتفع جلبتهم مقاصد وغايات متنوعة للسكن من جديد في المدينة "العتيقة" و عمليات بيع وشراء وارتفاع مهمّ للقيمة الكرائيّة لهذه الديار لا يتناسب مع شكلها ومساحتها وموقعها وتزامنا مع هذه الحركية التي تشاهد وترى نستمع إلى صدى خطاب قلق يتحدث فيه أصحابه عن "موت المدينة" أو نهايتها وتحولها إلى فضاء هجين مشوه مخضرم. تصورات و تمثلات أيديولوجية تستند إلى نظرة يكتنفها التردد والتشاؤم والغموض ومردّها تحوّلات سريعة يستحسن الوقوف عند مداها وتأثيراتها على الأفراد والمجموعات الاجتماعية. وفي مقابل هذا نعثر في الوثائق التي وجدناها في دفاتر البلدية و"جمعية صيانة المدينة بالمهدية" على ما يدلّ على اهتمام متزايد بدءا من سنة 1998 للمتدخلين الأجانب من مموّلين وهياكل أممية وباحثين أجانب بفضاء المدينة "العتيقة" وبديارها بالخصوص مما يعبّر عن انتهاء عهد نظرة مهمُشة محقُرة لفضاء المدينة سادت لفترة طويلة تخللتها صحوة مفاجئة وقعت في منتصف سبعينات القرن العشرين ونجد لها آثارا لا فقط في مدينة المهدية بل في كامل المدن التاريخية للمغرب العربي. فبعد سبات طويل تتعالى اليوم أصوات من هنا وهناك تدعو إلى "تهذيب" و "صيانة" هذه المدن واستثمارها استثمارا جديدا يجعل منها فضاء عيش كريم ويفتح آفاقا جديدة للسياحة الثقافية ويمنح لمتساكنيها إمكانيات لتحسين مستوى عيشهم ويكسبهم عادات جديدة تؤهلهم لذهنية المواطنة.

سنحاول استنطاق الظروف التي ولّدت مثل هذا الخطاب وتحليل آثاره المحتملة على حاضر المدينة ومستقبلها والتعرف على حامليه ومقاصدهم واستراتيجياتهم.

و لسائل أن يسأل عن أسباب اختيارنا للدار كوحدة معاينة و مقياس ملاحظة وتفكير في إشكالية المدن النواة وصيرورة تطورها وتفاعلها مع مظاهر قطيعة تارة وطورا مع مؤشرات استمرارية وتواصل وأشكال تصدّ formes de résistances و مقاومة، سنحاول في هذا البحث المتواضع رصدها وجمعها وتقصي تبعاتها

وتأثيرها على الأفراد والعائلات و متساكني المدينة والفاعلين المتدخلين في مجالها وترابها بدءا بالمؤسسة البلدية و وصولا إلى النسيج الجمعياتي.

الدار وعاء للذاكرة وفضاء عيش ومعبر للحياة العامة، تدور في فلك متناقضات مولدة للحياة في نظام المجتمع وللرابطة الاجتماعية فهي ضيق واتساع، فراغ وعمران، ضمّ وإبعاد، إدماج وإقصاء، منها نرصد تحوّلات المجتمع في الروابط التي ينسجها مع الفضاءات المحيطة به.

1. الدار في الأدبيات السوسيولوجية و الأنثروبولوجية

نهتم بالدار أساسا من زاوية أنثربولوجية سوسيولوجية تنتبه إلى الفضاء كمولّد لعلاقات وتفاعلات وسند من **سندات ذاكرة الفرد وذاكرة العائلة وذاكرة المدينة، فهي قبل أن تكون أعمدة وجدران وسقف وأبواب ونوافذ وأثاث هي فضاء عيش تتمحور حوله تصورات و تمثّلات وهواجس وتنتظم من حوله ثنائيات وأقطاب متضادة متنافرة أمكنة عليا وأخرى سفلى انفتاح وانغلاق أنوار وظلال طقوس، ضيافة وذهنية ريبة من الآخر، ليل ونهار، فضاءات للرجال وأخرى للنساء**[3] ثنائيات دفعت ب"بورديو" إلى القول أن الدار في جهة "القبائل" الجزائرية مثلت عالما مقلوبا على رأسه un monde renversé بحيث أن مكوّناتها المورفولوجية وعلاقاتها الإنسانية مركبة بطريقة يواجه بها متساكني الدار العام الخارجي الذي يحيط بعالم الدار الضيق[4] والدار مسكونة بمخزون روحي ومعنوي وأحاسيس ومشاعر فردية وجماعية لا يمكن للباحث أن يتجاهلها أو أن يطمس معالمها في مسار عقلنته وإدراكه للفضاء المادي للدار. ويعود الفضل إلى "زيمل" Simmel الذي نبه إلى ضرورة تضخيم جانب الدلالات المعنوية التي تتضمنها البناءات والأنساق المادية[5] وفضلا عن هذا فإن الدار **تحتضن تراثا ماديا ومخزونا "لاماديا"** حسب ليفي ستروس[6] و **تؤسّس للهويّة الفرديّة والجماعيّة**

---

[3] أنظر في:
Thiessan, X., *Les manières d'habiter dans le Sahel tunisien*, Paris, CNRS, 1981.

[4] Bourdieu, P., *La maison Kabyle ou le monde renversé, dans, Le sens pratique*, Paris, Minuit, 1980.

[5] Simmel, G., *La tragédie de la culture*, Paris, Petite Bibliothèque Rivages, 1988.
Cf aussi, Milliti, I., *Seuils, passages et transition la liminarité dans la culture maghrébine, dans*, *Public et privé en Islam*, Paris, Maisonneuve et Larose, IRMC, 2002, pp 177-196.

[6] Levi-Strauss, C., *La notion de maison, dans*, *Terrain*, pp 34-39.

أو تلبّي رغبة أفراد وجماعات هوياتها ذابلة وواهنة aux identités nonchalantes . والدار في المدينة تعتبر من شروط الحصول على نعت "البلدي" أو الحضري فضياع الدار هو بمثابة ضياع الانتساب الحضري، والحضري عموما أو رجل المدينة هو أساسا شخص مالك لدار ولحانوت أو لأشجار زياتين ولمكان في مقبرة المدينة[7].

والدار من جهة أخرى ترشدنا إلى الطريقة التي تنتظم بها العلاقات العائلية وتواصلها في الزمان والمكان وتطلعنا على استراتيجيات الأفراد في التداول والتوارث الاجتماعي وتكشف لنا الآليات التي يبني بها الأفراد تأليفات قابلة للتغير بين التقاليد الموروثة والحداثة وبين مجال الحياة الخاصة والحياة العامة.

2. المنهجية والفرضيات

سنسعى في هذا البحث إلى دراسة موقع الديار في المدينة النواة بالمهدية مورفولوجيا واجتماعيا وعلاقتها بمجال المدينة ومكوّنات نسيجها الحضري، وسنحاول تحقيب التحولات التي مرّت بها ديار المهدية تاريخيا بدءا من المرحلة الاستعمارية ثم سنحاول الحديث عن دلالات الدار ومنظومتها الرمزية التي تحمل تصورات و تمثلات وشعائر مألوفة تساهم بدرجة أو أخرى في بناء المعيش اليومي وفي هندسة العلاقات الاجتماعية ويؤثث لتفاعلات المجموعات العائلية ضمن العالم الداخلي للدار. وسننطلق أساسا من ذكريات وتجارب شخصيّة نحملها عن ديار المهدية التي طبعت طفولتنا عملا بمبدأ أرسطو الذي نادى بضرورة منهج الحميمية l'empathie في تقصّينا للظواهر الإنسانية عملا بمقولة "إبدأ بنفسك قبل أن تعرف الآخرين".

وفي مرحلة ثالثة سنقدم بعض المقابلات شبه المقنّنة قمنا بها مع بعض الأسر التي تقيم حاليا بالمدينة العتيقة أو التي أقامت بها سابقا وتهدف هذه المحاورات أساسا للتعرف على:

[7] Hénia, A., *Représentations sociales de la richesse et de la pauvreté à Tunis aux XVIII^e et XIX^e siècle*, dans, « *Pauvreté et richesse dans le Monde Musulman Méditerranéen*, Publications de l'ESF, Maisonneuve et Larose, (1999).

- الهوية الاجتماعية لسكّان هذه الديار، تنقلاتهم في فضاء المدينة وخارجها والطريقة التي تصبح بها الدار أداة ضمّ أو تفرقة للعائلات وموضوع توارث وإعادة إنتاج اجتماعي.
- التغيرات التي طرأت على الدار مع محاولة تأريخ مراحل التحسين والتوسعة والصيانة وإعادة التهيئة.
- تصورات و ثمثلات السكان الحاليين أو السكان الذين غادروا المدينة "العتيقة" لفضاء الدار ومحيطها والنعوت والكلمات التي يصفون بها محتوياتها وأثاثها وماذا عن تشبثهم بالإقامة داخلها.
- أسباب الحركية الجديدة المتمثلة في بيع الديار و اشترائها من طرف فئات مرفهة.

كما تهدف هذه المقابلات إلى التحقّق من الفرضيات التالية:

- من المحتمل أن يكون "بحارة" المدينة أكثر ارتباطا وأكثر تشبثا بالسكن في ديار المدينة "العتيقة" من الفئات المتوسطة الدخل وعائلات الوجهاء والأعيان والإطارات.
- من المحتمل أن يكون الحرفيون والموظفون أكثر مغادرة للمدينة.
- من المحتمل أن يكون أبناء الفئات المرفهة والعائلات الميسورة أقل تعلقا بالسكن داخل الديار "التقليدية" للمدينة وأكثر تفضيلا للسكن في ديار من طراز أوروبي.
- من المحتمل أن يتنازل الأخوة للأخ الأصغر عن حق ورث الدار في حال اقتسامها.
- كلّما كان الوالدان على قيد الحياة وخصوصا الأم كلما تماسكت الأسرة وحافظت على وحدتها حول فضاء الدار.
- من المحتمل أن الدافع لاقتناء ديار داخل المدينة "العتيقة" يتمثل في البحث عن الهدوء والبساطة والحنين إلى زمن غابر والهروب من "حداثة" فاقدة للمعنى وقائمة على المادة والمنفعة والزيف و الفردانية.

3. النمط النموذجي لديار المهدية داخل المدينة "العتيقة"

تعدّ مدينة المهدية التي أسسها سنة 910 ميلادية الداعي الشيعي عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية من أعرق المدن الإسلامية في المغرب العربي بعد

القيروان. والمهدية تشغل مكانا منزويا منغلقا على نفسه فهي تتمثل في شبه جزيرة وقع اختيارها من جهة للابتعاد عن تمرد القبائل البربرية وعن القيروان ذات الأغلبية السنيّة و للتحصّن بالبحر لصدّ الهجومات الآتية من الشرق والغرب وجلب التموينات عن طريق البحر كلما سدت السبل البرية. و المهدية تصنف ضمن المدن المستحدثة أو المدن المحصنة التي وقع اختيارها لا لأنها مؤهلة للتوسّع العمراني ولخصب الأراضي المحيطة بها وتوفر المياه العذبة و مقالع الحجارة بها، وإنّما لأنها تحتل موقعا جغرافيا متميزا يساعدها لأن تصبح مدينة مهابة وقلعة ممانعة ومدافعة وحماية وهذا ما وقع بالفعل حيث وصفت في مصادر الفترة الوسيطة بالمدينة الذكر La ville mâle وكانت تسمّى بإفريقيا Africa، ولقد عرفت تاريخا متقلبا مرت فيه بفترات ازدهار و عمران وفترات خراب ودمار تعقبها فترات إعادة تعمير. وارتبطت المدينة النواة بأرباضها واضطرت للتعايش مع محيطها القروي والريفي الذي ساعدها على مقاومة أعمال التدمير والنهب والسلب التي كانت تتعرض له بفعل الهجومات القادمة من البحر والبر وخصوصا خلال الصراع الأسباني التركي على البحر الأبيض المتوسط الذي أفضى إلى تدمير حصونها من طرف شارل الخامس Charles Quint وفرسانه سنة 1550، والذي احتل المدينة بجيش قادة الأميرال "أندري دوريا"[8] بعد حصار طويل ودمر حصونها وأبراجها وقلاعها وحطّم بذلك الأسطورة الدفاعية للمهدية ثم أمر سنة 1594 بإضرام النار فيها وإحراق جامعها، فحلّ بها الخراب حيث أضحت تسمّى"بمدينة الفئران" ولم تتمكّن المهدية في العهديّن المرادي والحسيني من استعادة مكانتها وبدأ دورها يتقلص أمام مدن مثل المنستير وسوسة وصفاقس.

وأثناء الحكم الفاطمي كانت المدينة أساسا مدينة أميريّة ومركزا لتموين الجند وتمويله تقوم على ثلاثية **القصر والجامع والسوق** ولم تكن فضاءا للسكن والسكنى للعوّام الذين كانوا يقطنون بأرباض المدينة وأساسا بربض زويلة وحيث لا يفكّرون في مداهمة المدينة نهارا لأنهم سيخافون على أولادهم ونسائهم من بطش جند الدولة الفاطمية وليلا لأنهم سيخافون على أموالهم وأرزاقهم التي كان يحويها سوق المدينة.

[8] Cf, L'article Al Maydiyya, F., Dechraoui, dans, *L'encyclopédie de l'Islam*, p 1236.

تمسح المدينة "العتيقة" اليوم تقريبا 376670 م^2 وتقدر المساحة المبنية بما يقارب 13916 م^2 أي ما يناهز 30 بالمائة من مجموع المساحة الجمليّة وتحتلّ المقبرة فضاء الأموات[9] تقريبا 18 بالمائة من مساحتها الجملية بمساحة تقدر ب 69260 م^2 وهو ما يبين مكانة المقبرة البحرية في النسيج العمراني للمدينة حيث مثّل البحر قديما وحديثا حلقة وصل مع الآخر ومعبرا نحو الحضارات الأخرى وممرّا للسلع والبضائع والتقنيات والأفكار والأحاسيس المتناقضة وملاذا للنساء (حيث يقصدن قديما البحر ليلا للترويح عن النفس ونهارا لغسل الأدباش والصوف) وللأطفال أين يجدون متسعا للعب والمرح وممارسة نشاط الصيد بالصنارة وشباك "الطراحة" وموردا للرجال وخاصة للبحارة ومكانا لجلب الزوار الجانب والسياح الذين ذهب بهم أمر عشق رؤية البحر إلى شراء دار داخل المدينة "العتيقة" وخاصة على الواجهة المحاذية للبحر ونقصد الواجهة الغربية وفي اصطلاح المهدويين ينعت ب"بحر الجبلي".

تتركب المدينة الممتدّة من "السقيفة الكحلاء"[10] أو باب الفتوح أو باب زويلة إلى برج الرأس ومنه إلى رأس أفريقيا من ثلاث مناطق رئيسية تحتل فيها الوظيفة السكنية دورا ثانويّا :

- المنطقة القديمة وهي سكنية تجارية مع وجود بعض الأنشطة الاجتماعية والدينية والترفيهية (مقاهي سياحية بالأساس) والخدمات (مكتب بريد، قسم

---

[9] وصفها جيفي سنة 1881 بمدينة الأموات حيث ذهل بموقع ووزن المقبرة داخل المدينة ونعتها "غاستون فوليي" سنة 1889 بمملكة الموت ينتظر فيها سكانها تحت وقع أصوات أمواج البحر بفعل إيحاء أزلية الموت غدا أفضل ويتطلعون إلى النهضة والتمرد على الوضع القائم

Vuillier, G., *La Tunisie illustrée*, Tours : Alfred Mahé et fils, pp 164-165.

ووصفتها الرحالة الفرنسية E., Guernier في أواخر أربعينات القرن العشرين بالمكان المتسع الرحب ذو المنظر الخلاب حيث أشجار الزيتون والتين

Guernier, E., (s. / dir) de, *La Tunisie*, Paris, Encyclopédie de l'Empire Français, 1947, p 436

[10] يجب البحث عن الأصل الإيثيمولوجي للكلمة وعن اشتقاقها بهذا النعت في اللهجة الدارجة والرموز والمعاني التي يولدها هذا المعلم التاريخي.

في إحدى جلسات المجلس البلدي لبلدية المهدية بتاريخ 27 فيفري 1977 طرحت مسألة التسمية واقترح ممثل "المعهد القومي للآثار والفنون" الذي أصبح يسمى اليوم "المعهد الوطني للتراث" العمل بتسمية باب زويلة.

إرشاد سياحي، متحف جهوي يحتل البناية القديمة لمبنى البلدية التي شيّدته سلطة الحماية بعد 1888، مكاتب العدول...).

- منطقة المنار وهي أثرية وتقع على امتداد رقعة المقبرة.

- منطقة المقبرة وهي المنطقة الواقعة على الساحل الجنوبي ونجد بها الجامع الكبير الذي رمم سنة 1966 وهدم كل من حوله والبرج العثماني والميناء القديم المحفور في الصخور والذي تعود إلى العهد البونيقي.

وبذلك يمثل مقدار المساحة المستعملة للسكن 48226 م^2 من مجموع المساحة المبنية أي ما يعادل 42 بالمائة ممّا شكل ضعف الرصيد العقاري وازدحام المساكن عاملا حاسما في دفع السكان إلى السكن خارج المدينة النواة، ولكن رغم هذا فإنها تحتل موقعا مركزيا في تصورات وممارسات المهدويين في علاقتهم بمدينتهم بحكم:

- وجود الجامع الكبير وعديد الزوايا وخاصة زاوية سيدي جابر الولي الصالح حارس المدينة والمزارات والمقبرة وانتساب أغلب العائلات إلى "برج الرأس" من قريب أو من بعيد وما يوفّره الفضاء من اشباعات روحانية ووجدانية لمتساكنيه والوافدين عليه، فهو يرسخ لحظة من لحظات التجلي مع الخالق والمصالحة مع الذاكرة في مدينة تشهد اليوم نسقا سريعا من تحولات بنيوية تهدّد توازناتها الاجتماعيّة.

- رواج أسطورة تأسيس مفادها أن صفة ساكن المهدية ذو الأصل المهدوي لا تنطبق إلا مع من سكن في "برج الرأس" وهنا نلاحظ أن الفضاء شكل عاملا مؤسسا للهوية ومكانا للذاكرة الجماعية un lieu de mémoire التي يحملها "المهدويون" عن مدينتهم.

وبفعل ضيق المساحة المسكونة تصل الكثافة السكانية إلى أعلى مستوياتها في المدينة بما قدر ب2000 نسمة في الهكتار الواحد في المنطقة السكنية الواقعة بين نهج سيدي جابر ونهج الحاج محمد عبد السلام وتنزل الكثافة إلى أدنى مستوياتها بين 107 و 210 نسمة في الهكتار (وهي نسبة مؤهلة إلى الانخفاض أكثر بفعل وفاة مسنّين العائلات الميسورة وتفضيل أبناءهم وذويهم السكن خارج المدينة) عند الاقتراب من الجامع ومن مساكن وديار و"دريبات" العائلات الميسورة (الحمزاوات و بن رمضان) وتمثل هده المنطقة 32 بالمائة من المساحة الجملية وهي نسبة لا يستهان بها.

ويدل الكشف الشامل الذي أنجزته "جمعية صيانة مدينة المهدية" سنة 1975[11] في فترة كثر فيها الاهتمام ب"صيانة" المدن التاريخية محليا ودوليا أن ثلث الديار توجد في حالة سيئة ولا تعد البناءات الحسنة سوى 18 بالمائة بينما نلاحظ اليوم أن نسبة الديار السيئة تناقصت بشكل ملحوظ وتزايدت في مقابل هذا نسبة البناءات الحسنة وذلك على إثر تحسّن دخل متساكني المدينة وتأثير عائدات الهجرة الخارجية وخاصة إلى إيطاليا وسهولة الحصول على قرض تحسين المسكن أو قرض سكني طويل المدى لبناء مسكن أو طابق علوي.

ويتكون النموذج السائد للدار في المدينة "العتيقة" والتي تمثل اليوم مخبرا لتلاقي **أنمطة معمارية متنوعة** تصل إلى التضارب والتذبذب والتردّد بين مرجعيات عديدة تكشف عن أزمة هوية معمارية حيث يلتقي المعمار التقليدي الذي مازال محافظا على البعض من صفاته مع المعمار الوافد والدخيل فيمتزج الأسمنت بالـ"الجير العربي" والزجاج بالسيراميك والحجارة السميكة بالأجر وتبدّل شكل الأبواب والنوافذ وأحجامها وموقعها في الدار وظهرت في المدينة منازل حديثة لا تمت بصلة إلى المعمار "التقليدي" وتبدلت أشكال تأثيث البيت.

لنعد إلى النموذج المألوف في ديار المهدية الذي يتكوّن عادة من:

- باب وسقيفة داخلية وأخرى خارجية وهي عبارة عن مدخل يخصّص لاستقبال الضيوف وعزل الفضاء المنزلي عن الأنظار ويكون وموازيا أو بعيدا عن باب الدار وذلك حتى لا يرى الزائر تحرّكات النساء.

- فناء أو "وسط الدار" وفيه تجتمع العائلة للسهرات في الصيف وتستعمله ربة البيت لقضاء بعض شؤون البيت من غسيل وإعداد للعولة و مؤونة وذخر العائلة.

- المجلس أو بيت الجلوس يشرف عادة على وسط الدار وفيه يستقبل الأقارب ويخصص لتناول الطعام وعقد السهرات في الشتاء.

- بيوت للنوم وتحتوي على "سدة" أو "دكانة" ذات واجهة منحوتة من خشب مذهب أو "مقصورة" وهي عبارة عن غرف تستعمل للانزواء.

---

[11] الباهي، (محمد)، *من مناهج البحث في التنظيم العمراني الإسلامي، في " مجتمع وعمران"*، العدد الأول، جانفي/مارس 1982 ، ص 40–64.

العوني، (محمد)، *نحو إعادة الاعتبار لمدينة عربية إسلامية المهدية العبيدية*، أطروحة مرحلة ثالثة هندسة معماريّة، دورة فيفري 1984 ، تونس، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير بتونس.

- بيت المطبخ وتسمى "النوالة" وتحتوي على" ماجل" تحفظ فيه مياه الأمطار وبئر يحفر في مستوى المائدة السطحية ليستخرج منه ماء يخصّص لغسل الأواني وتنظيف البيت والوضوء وتبريد بعض الغلال في الصيف وفي بعض البيوت نجد الفناء والمطبخ فناءا صغيرا يسمى "الدويرة" وفيه تقوم النسوة فيه ببعض الشؤون المنزلية الخاصة.

- بيت خزين لخزن العولة والذخر من زيت وتوابل وموالح ومستخرجات القمح والشعير وغلال وخضر مجفّفة...الخ.

- مقصورة لحفظ الأدباش أو شباك الصيد وفي بعض البيوت كانت توجد عند بعض العائلات التي كانت تزاول النشاط الفلاحي ولا شيء غيره "زريبة" وهي عبارة عن مربض للحيوانات من دواجن وجمال وبغال وحمير تستعمل للتنقّل إلى مزارع الفلاحين التي تقع بعيدا في تخوم المدينة وأرباضها ومجالها الريفي وأبقار تربّى لاستغلال حليبها.

إن هذا النموذج السائد لا يمنعنا من القول أنّه يمثل ديار الفئات الوسطى التي لا تتجاوز مساحتها 90 م^2، ويعدّ الأكثر انتشارا داخل "برج الرأس" التي تمتد على مساحة لا تتجاوز 25 هكتارا ولكن تعرف تنوعا، مثلها مثل المدن "التاريخية" التونسية كتونس الحاضرة والقيروان وبنزرت والحمامات وسوسة، في نمط الديار الرائج حيث نجد تمثيلا لها في النمذجة التي أقترحها "ماريلو قانتلي" بالنسبة إلى مدينة تونس الذي عدد خمسة أنماط للمسكن : القصر، الدار الكبرى أو بيت آل فلان، الدار"البورجوازية" الدار ثم البيت المتواضع[12]. و يبدو أن غالبية ديار "برج الرأس" تنتمي إلى هذين الصنفين الأخيرين.[13]

[12] Cantelli, M., *Essai de la typologie dans la Médina de Tunis,* Tunis : ASM, 1969.

[13] لاحظت الباحثة "جميلة بينوس" نفس الخاصية بالنسبة لمدينة الحمامات التاريخية

Binous, J., *La structure urbaine et l'évolution de l'habitat dans la Médina de Hammamet*, dans, *Médinas de Tunisie : Hammamet*, (s. / dir) de T, Bachrouch, Cahiers de CERES, Série Histoire, 1996, n°7, p22 .

4. ديار "برج الرأس" من مدار الذكريات الشخصية لطفولتي

تشكل الدار، كما قلنا سابقا، محرّضا على التذكّر و سأحاول أن انطلق من ذكريات طفولتي لأصف أجواء ديار المدينة العتيقة كما عشتها مجيبا في ذات الوقت عن مطارحات قيلت في علاقة الدار بالفضاء الخارجي والتي تصف بعضها الدار في المدن التقليدية الإسلامية بالفضاء المنغلق على نفسه والذي يدير بظهره إلى الفضاء العام.

كنت أتنقل في طفولتي (أواخر ستينات وأوائل سبعينات القرن العشرين) بين دارين دار جدي الأبوي الواقعة خارج أسوار المدينة في منطقة تعرف بالرمل ودار جدي الأمومي الواقعة في حومة أو حارة "البحُّارة" على مشارف مقبرة المدينة الذي كانت تشكل لنا نحن الأطفال فضاء رحبا لممارسة ألعابا عديدة لا نعرف معناها في ذلك الوقت ومنها إضرام النار للاحتفال ب"عاشوراء" وصنع زوارق صغيرة فهمت من بعد عند قراءتي لأقصوصة الأديب التونسي مصطفى الفارسي[14] أنها كانت دعوة ضمنيّة يوجّهها الأطفال لآبائهم البحارّة لإقناعهم بالبقاء والتشبث بالمكان وعدم الرحيل في فترة كان فيه حلم الهجرة إلى أوروبا يراود الكثيرين من سكان المدينة أملا في تحقيق الأماني وتحسين المستوى المادي لأسرهم وربما يفسر صنع الزوارق برغبة الأبناء تعويض آبائهم عن الحرمان وعدم امتلاك زوارق صيد في الأعماق خصوصا بعد تراجع محاصيل الصيد الساحلي بحكم الاستنزاف الأقصى الذي تعرضت له موارد البحر بحكم كثرة الاستغلال والضرر الحاصل للبحر من جرّاء الصيد الجائر لسفن صيد الأعماق المعروفة في اللغة العامية ب"الكركارة". كما أتذكر أننا كنا ندخل ديار الجيران والأقارب بدون تكلّف ناهيك وأن أبوابها كانت مفتوحة على مصراعيها كما كنّا نقضي كامل الوقت في اللعب وجر الماء الشروب من حنفية المدينة الواقعة قرب البرج العثماني في عربات مجرورة كنا نتسابق في ابتكارها والتباهي بها.

---

[14] يقول مصطفى، الفارسي في *"سلسلة من ذهب"* " هي صورة حيّة لقصة واقعيّة، قصة نساء المهدية اللائي رهنّ حليّهن غداة استقلال البلاد ليمكن مصانع البلاد بعد تعطيلها ويشاركن بقسطهن إلى جانب الرجل في رفع مستوى الاقتصاد التونسي..."

الفارسي، مصطفى، *القنطرة هي الحياة*، ط 12، تونس، الدار التونسية للنشر، 1992، ط1 سنة 1957، ص 63–72.

الذكريات تحملني إلى أجواء الدار دار "الونس" و"السترة" و "العمار"والعتبة إلى عالم المرأة بالأساس وقديما يقول "المهدوي" "نواسي وعتب وشويّة من الذريّة" Femmes, seuils et un peu de progéniture، فالدار يملأ فراغها من ربة البيت، فقديما عندما يتحدث الرجل عن زوجته أم عياله لا يشير"لغريب" عن العائلة إليها باسمها لأن الاسم قد يبدو في تلك الفترة عورة بل يقول عنها **أنّها الدار**. وهنا أتذكّر أن جدّتي لم تكن الوحيدة في المدينة التي تشرف على كل ما يخصّ الدار فجدي، مثله مثل باقي الرجال، كان يتنازل لها عن كل شيء ويسلّمها المال متخلّصا بذلك من عناء الذهاب إلى السوق الأسبوعية وشراء كل ما يلزم الدار من خضر وغلال وأثاث ومفروش وكانت في كثير من الأحيان تصطحبني معها عنوة وتجبرني علي الاستيقاظ باكرا رغم أنها كانت تعاملني بكثير من الدلال ونوعا من الحيف مقارنة بأخواتي البنات وأخي الأصغر.

الرجل أو الذكر لا يتواجد في الدار إلا للنوم والاستراحة أو للغذاء ويخلّد المثل الدارج "راجل في الدار يعمل الكدار" قيمة أن حمى المرأة هو دارها وأن الرجل يستمد كيانه الاجتماعي من الفضاءات الخارجة عن الدار من فضاء العمل وقديما يقال في المهدية عن رجل خرج للعمل "**فلان سرح**" وجد ضالته وراحته في التوجه لعمله ومغادرة الدار حمى المرأة أو" **فلان صوّب**" نزل إلى وسط المدينة أي ربما وجد صوابه في التوجه إلى الأماكن العمومية وترك الفضاء الخاص للنساء.

الصورة التي بقيت عالقة في الذاكرة عن الدار هو اتساع ورحابة "افتراضية" virtuelle في العلاقات بين أفراد العائلة المقيمين في الدار مقابل ضيق مادي للدار فمساحة دار جدي لا تتجاوز 60 متر مربع ورغم هذا لم نكن نشعر بالانزعاج من تواجد أكثر من سبعة أنفار بالدار، فلا فضاءات خاصة للصغار وأخرى للكبار، وفي مناسبات عديدة كنا نتنقل أنا وأخوالي الخمسة بين دارين دار جدي ودار جارة جدتي التي كانت لا تأتي إلى المهدية إلا في مناسبات قليلة حيث كانت تقيم بجانب أبنائها في العاصمة وتخشى أن تصيب دارها أذى أو عين شريرة من تركها فارغة. كما أن "وسط الدار" كان يخصّص لكل الأنشطة من أكل وغسل أدباش وطهي طعام وتبادل للنكت والملح وسهر حول برامج الإذاعة التونسية حيث الجميع كان ينتظر حكايات "العروي" والمسلسل الإذاعي الشهير الذي كان يذاع أسبوعيا "صور من الحياة". حياة بسيطة تقوم على التشابه والتكرار وأتذكر في طفولتي رائحة طعام العائلة المهدوية في "برج الرأس" التي تفوح من الديار

لتملأ الأزقة والدروب طعام "الشكشوكة" أي طبيخ بسيط مادته الطماطم والفلفل يقع إعداده مع السمك الأزرق المقلي، تشابه في نمط العيش يرشدنا إلى اقتصاد الندرة والكفاف للأسرة المهدويّة وخوف متأصل في الذاكرة الجماعيّة من الفقر والمجاعة والخصاصة ناهيك أن أثرياء المدينة معروفون ببخلهم ومغالاتهم في المحافظة على ثروتهم خوفا من غد لا تحمد عقباه.

وهذا يدلّ على أن العائلات في "برج الرأس" تؤلف بينها روابط عشائرية تقوم على هيمنة علاقات القرابة وعلى تشابه في نمط العيش وعلى تداخل بين فضاءات الديار والفضاء العمومي فضاء "الحومة" التي يحرسها شبابها من كل متطفل حتى من "حومة" أخرى داخل "برج الرأس". و في هذا الباب تحملني الذكريات لتلك العادات الحميدة التي كانت تربط، وربما لا زالت، بين العائلات والمتمثلة في تبادل الأطعمة والمحاصيل فالبحار يهدي للفلاح جانبا من خيرات البحر التي حملها معه والفلاح بدوره يقدّم له البعض من الغلال الموسميّة وتناقل الأخبار التي تنقلب في بعض الأحيان إلى حديث في أعراض "الناس" وتشفّ من مصائبهم.

حياة عشائرية ملؤها التكرار والتشابه والتماثل بين الفرد والجماعة وديار تركّب "الزمان" وتفعل فيه حسب مشيئتها وليس العكس[15].

إن الانطلاق من مدار الذات، رغم ما يحيط به من محاذير منهجية يجب التفطن إليها ومن بينها الغرق في الحميميّة والبيانات الجزئيّة والمجزأة للواقع، لا يمنعنا من القول أن فضاء الدار كما عشته ربما وكما عاشه أغلب متساكني "برج الرأس" لم يكن عالما متقوقعا على ذاته متصديا للعالم الخارجي[16] بل شكّل

[15] Bouhdiba, A., Chevalier, D., (Sous la direction de), *La ville arabe dans l'islam*, Paris, CERES, CNRS, 1982.

[16] يذهب صديقنا "عادل بالكحلة" في دراسته المونوغرافية عن طبلبة في نفس المنحى وخاصة عندما يتحدث عن تشكل حمى الدار في ديار "البحارة" التي تحتم عليهم مهنة مصارعة البحر وتزايد احتمالات الغرق والموت تطوير أو توسيع علاقات الجوار مما جعلهم أميل إلى علاقات أكثر حميميّة و إلى تقاسم الأسرار العائلية تماشيا مع المثل الدارج الذي روج له "العيايشة" ما فماش سر خافي في حومة اللوطة ويخلص "عادل بلكحلة" إلى القول أن دار البحار ليست فضاء مغلقا على نفسه مثل دار العياشي بل هي مفتوحة على الخارج. "وإذا كان قول "بورديو" العتبة نقطة التقاء العوالم المتعارضة يصح في المجتمع القبايلي بالجزائر والمجتمع العياشي حيث يكون الفضاء الخاص معارضا للفضاء العام، فان ذلك لا ينطبق على عتبة دار البحار الطبلبي..." ص 368 انظر :

فضاء "الحومة" حمى الجيران والأقارب "وأبناء البلد" امتدادا لفضاء الدار رغم وجود حواجز وحدود "العتبة" le seuil و السقيفة الخارجية والسقيفة الداخلية التي كانت تخضع إلى جدلية انفتاح وانغلاق بحسب هويّة المقتحم لفضاء الدار ونوعية الصلة الاجتماعية التي تربطه بمتساكني الدار، فضمن التصنيفات المألوفة التي تؤثر على تأثيث الفضاء من نوع التقسيم على أساس التمايز بين الرجال والنساء والأقارب المقرّبين والأقارب الأباعد تنضاف تصنيفات أخرى من نوع "ولد الحومة" وشخص آخر من حومة أخرى "ولد البلاد" و"برانّي" هويات تبنى ويعاد بناؤها حسب مقتضيات الظرفية والمكانة الاجتماعية للفرد الاجتماعي، والخلفية التي تقف وراء إعلان الهوية أو إخفائها قبول الآخر تارة، ورفضه أو تجاهله طورا.

وأتاحت لنا عمليّة التذكر تبيّن مدى ارتباط الذكريات الذاتيّة والشخصيّة بالذكريات الجماعيّة التي تشكل متن ذاكرة جماعيّة تتأسس في تفاعل حركي مع متغيّرات الزمان ومؤثّرات المكان، والدار بصفتها مجالا يروي سيرة فرد وقصة عائلة وقصة مدينة أحسن من مقالات مطوّلة ووثائق مخطوطة[17] تعبّر عن عمليات تثاقف وتصدّ ومقاومة وتأقلم تسارع نسقها قبيل فترة الحماية وأثناءها وبعدها إلى حين الواقع التي لاحظناها مؤخرا أثناء قيامنا بالبحث الميداني.ولا أخفي على القارئ أن هذه الذكريات الشخصية متأثرة بحاضر نعيش فيه ويجبرنا أحيانا على وضع الذكريات في خانة الحنين إلى زمن غابر وهمي وطوباوي مفتعل مرتبك ويحيط به الضباب والغموض من كل جانب، وهذا الإحساس بعدم اكتمال البعد الذاتي والذي تحوّل إلى قناعة أجبرتنا على اللجوء إلى وثائق الأرشيف أرشيف الإقامة الفرنسية وأرشيف وزارة الخارجية بالأساس ونخصّ منها مراسلات

بلكحلة، عادل، بن ريانة (رمضان) : *طبلبة: التقليدية والحداثة في المجتمع العربي*، الجزء الأول، تونس، مطبعة توب(على نفقة المؤلفين)، 2003 الفصل الرابع : الفضاء العماري وتكون حماه، ص 221– 370.

ويذهب Xavier Thyssen في نفس التوجه تقريبا حين يبرز مدى تشبث "الساحلي" حتى وان اختار الشكل المعماري الحديث أي الفيلا بالنمط العشائري والضروري في تنظيم الفضاء الداخلي للدار أو في رسم الحواجز والحدود بين المجال الخاص والمجال العام.

Thyssen, Xavier, *Des manières d'habiter dans le Sahel tunisien*, Paris, CNRS, 1983.

[17] Gherardi, Sophie, dedans/ dehors, dans « de toit à moi : mille et une façon d'habiter, dans « *Courrier international* », Hors-série : maison, octobre- Novembre- Décembre 2004.

"قنصل فرنسا" أرنو Arnaud في فترة ما قبل الحماية والمراقبين المدنيين الذين دوّنوا جوانب من الحياة اليوميّة لتساكني المدينة، دون أن ننسى محاضر جلسات المجلس البلدي بالمهدية التي تشكّل كنزا ثمينا ومستودعا لذاكرة المدينة ومعينا للباحث.

ونظرا لضيق المجال سنكتفي ببعض الإشارات التي تبيّن مدى ارتباط مسألة حواجز الدار وحدودها: عالمها الداخلي وعالمها الخارجي، مجالها الخاص Intime ومجالها العمومي Public بملابسات وحيثيات الظرفية التاريخية.

5. الديار وذاكرة المدينة

تحمل لنا الوثائق الأرشيفية المتوفرة[18] عن فترة ما قبل الحماية صورة عن مدينة تمرّ في مجالها الفضائي والاجتماعي بتحوّلات متسارعة و هامّة. ففي منتصف القرن التاسع عشر تزايد تدفق الجاليات الأوروبيّة على المدينة ممّا يفسّر وجود ممثلين لقناصل لأربع بلدان هي فرنسا (بدأ العمل بها سنة 1826) وانجلترا وايطاليا والإمبراطورية النمساوية المجرية وحيث احتلت المهدية المرتبة الخامسة من ناحية تواجد الجالية الأوروبية وكذلك بعد تونس، صفاقس، حلق الوادي وسوسة[19]. ففي سنة 1883 وحسب تقرير "جيفي" تعدّ مدينة المهدية 7322 نسمة منهم 6340 مسلما و 175 يهوديا الذين تضاعف عددهم ليصل سنة 1905 إلى 500 نسمة و 803 أوروبيا هذا إلى جانب البحّارة الإيطاليين الذي كانوا يتوافدون على المهدية خلال موسم صيد السردين والذي كانوا بمثابة "الوسطاء الثقافيين" حسب نعت الباحث "محمد رؤوف حمزة" وهيأوا الأرضية لانفتاح المدينة على عالمها البحري ومجالها المتوسطي بعد فترات تقوقع عرفتها على إثر

[18] استعملنا المصادر التالية:
- Archives du Protectorat français en Tunisie, Archives de Nantes, Tunisie, 1er versement, Agence consulaire de Mahdia, Carton 422.
- Archives du Quai d'Orsay, série Tunisie, carton 274- 278 (1827- 1874).
- Foussaguide (commandant), villes de Mahdia, Archives du service historique de l'Armée de terre, série H, carton 238.
- Juffé (commandant), rapport sur le territoire de Mahdia.
- A.N.T de Tunisie (ex. A.G.T), série H, Carton 278.
- Hannezo, Mahdia : notes historiques, dans « la revue tunisienne », 1907 et 1908.
- A.N.T, série A, Carton 144 et 146.

[19] حسب تقرير جيفي

التنافس الحربي بين الإمبراطورية الإسبانية والإمبراطورية العثمانية على السيطرة على المتوسط وبداية الهيمنة التجارية والعسكرية والاقتصادية للضفة الشمالية للمتوسط وبالخصوص مدن "جنوة" و"بيزا " ومرسيليا والبندقية إلخ... كما ساهم هؤلاء البحارة الذين كانوا يعاملون أول الأمر بشيء من الاحتقار والازدراء وينعتون بالكفار المارقين في تحريك السواكن وفي تطبّع الأهالي بقيم جديدة فضلا عن اقتياد فئة من البحارة المهدويين إلى إيطاليا لتعلّم تقنيات الصيد في الأعماق وتصبير الأسماك[20].

وتعكس الوثائق الأرشيفية هذا التعايش الصعب بين الجاليات الأجنبية والأهالي أين نعثر في "الأرشيف الوطني" على وثائق تمثّل عرائض وشكاوى من الأهالي موجّهة إلى السلط المحليّة والجهويّة تتضمّن تذمّرا وتمرّدا على السلوكيات النابية للتجّار والأجانب وخصوصا البحّارة الذين يكسّرون أحيانا حاجز الميناء المحاصرين فيه ويقتحمون المدينة ويملئونها سبّا وشتما في الأهالي وتطاولا عليهم بسبب معاقرتهم للخمر وارتيادهم دور الخناء و البغاء[21].

كما عكست وثائق أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية رؤية الأجانب المناوئين للسكان المحليّين والذين دفعهم انقلاب ميزان القوى لفائدتهم ولفائدة الدول التي ينتمون إليها بفعل مديونيّة التجار وكبار الفلاحين المحليّين من أمثال الحاج أحمد وسليمان حمزة[22] إلى إعلان هيمنتهم على المدينة والتذمر من تطاول الأهالي عليهم والاعتداء عليهم وعلى ممتلكاتهم بالنهب والسرقة. وتصور لنا مراسلات قنصل فرنسا في فترة ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر "دومينيك أرنو" D. Arnaud أجواء مدينة تعيش على وقع الدسائس والمؤامرات ومحاولات القتل على وجهاء الجاليات الأجنبية من أمثال الإنجليزي "فيولينتي" Violente[23]

---

[20] Hamza, H.R., *Les pécheurs saisonniers italiens à Mahdia (1871- 1945)*, dans « *A.A.N.* », tome XXX, 1991, pp 156-159.

[21] نفس المرجع

[22] تعكس القضية التي رفعها التاجر "شايوليه" وشركائه الفلاحين الحاج أحمد وسليمان حمزة مثالا حيّا على انقلاب موازين القوى لفائدة الجلسات الأجنبية.

Mémoires les sieurs Jacques-

[23] Archives de Nantes, Tunisie 1er versement, carton 422 lettre adressée par Arnaud agent consulaire à Mahdia au consul général de France en Tunisie Duchesse de Bellcourt le 10 février 1866.

والفرنسي Joncquier[24] وعلى شخص أرنو[25] نفسه بالرغم من الحصانة التي يتمتّع بها.

وتشير المصادر الأرشيفية إلى أن الجاليات الأجنبية سكنوا أول الأمر في ديار من جهة البحر غرب برج الرأس حذو العائلات من أمثال آل حمزة هذا إلى جانب اليهود الذين كانوا يتمركزون بالخصوص في فترة ما قبل الحماية في الجهة الشمالية من المدينة في جزء فيه الكثير من الحيطان الخربة حسب ما ورد في التقرير الاستخباري للرائد جيفي Juffé سنة 1883[26] مما يعكس وضعيتهم الرثّة في تلك الفترة ومع حلول الاستعمار المباشر، كما ركّز بعض التجّار الأجانب بعض النواتات الاقتصاديّة في المدينة كالمحلاّت والمخازن والمعصرة العصرية التي كان على ملك لونيس جونقيي Lonis Joncquier ومعمل صغير لإنتاج الصابون على ملك Costa.

و يكون التقارب الذي حصل بين الجاليات الأجنبية والأهالي في فضاء المدينة "العتيقة" قد ساهم بصيغة أو بأخرى في نشوء روابط اجتماعية ظاهرها رفض متبادل وباطنها تلاقح و تثاقف وتفاعل، وانعكس هذا على هندسة فضاء الدار حين يسعى أثرياء المدينة شيئا فشيئا إلى "تقليد" الأوروبيين في طريقة تصميمهم للدار وتأثيثهم لها رغم أن هؤلاء كانوا يستغلون نفوذهم "الجديد" على المدينة بالقيام بأعمال تجسُّس وتلصُّص voyeurisme على ديار الأهالي وذلك بفتح النوافذ على منازل السكان المحليّين المعروفين بتشبثهم بقيم "الحشمة" وإخفاء الحريم عن الأجنبي واحترام "حرمة" الدار. كما عمد السكان الأجانب إلى تدليس مقدّسات المدينة بفتح حانات ونوادي خاصة داخل حمى المدينة في بطحاء السوق المعروفة اليوم ببطحاء القاهرة التي تتوسطها مقهى "قمرة" ذات الأشجار والأعمدة الأربعة.

ومنذ عشرينات القرن العشرين سعت الجاليات الأجنبية إلى تدعيم نفوذها داخل المدينة فأسّست العديد من الجمعيات والتعاونيات وشيدت فيلات ومساكن عصرية على الطراز المعماري الغربي خارج برج الرأس قرب الميناء التجاري وعلى

---

[24] نفس المصدر

[25] رسالة وجهت بتاريخ 4 فيفري 1871.

[26] نقلا عن الصغير (عميرة علية) : المهدية ومحيطها في السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي من خلال تقارير الاستعمالات العسكرية : لوحة مونوغرافية في "المجلة التاريخية المغربية، نشر مؤسسة التميمي

ضفاف شاطئ "المرسى" قرب مقابرهم (مقابر اليهود والنصارى و المتجنّسين...) ومصالحهم الاقتصادية (تجارة الزيت والفاتورة، الملاّحة ومعامل تصبير الأسماك...) فخلقوا لدى أثرياء المدينة وأعيانها الرغبة في تقليدهم أو مزاحمتهم وذلك ببناء **ديار ثانوية** على نفس الطراز المعماري وتأسيس جمعيات ثقافية من نوع "نادي التعاون"، مدينة "جديدة" أوروبية المعمار تتوفر فيها المرافق من مدارس وإدارة ومكتب للبريد ومكتب للقمارق ومن جهتها سعت سلطات الحماية منذ 1881 إلى بناء مدينة "جديدة أوروبية خارج أسوار المدينة العتيقة" و إلى هدم جانب من باب الفتوح ذو الرمزية والشحنة المعنويّة القويّة لدى الأهالي لبناء مبنى البلديّة الذي شيّد سنة 1912 و تحويل حبس "سيدي مطير" الذي كان ملاذ عابري السبيل والمساكين والتائهين والمشرّدين والاستيلاء على جانب كبير من هذا العقّار بداية من سنة 1909 بعنوان المصلحة العامة وذلك لبناء ثكنة ومدارس وإدارة الجمارك وإدارة الطرقات والسدود.

وهكذا ومع تركيز الحماية الفرنسية لهيمنتها على المدينة، إبتعدنا نوعا ما عن مرحلة تحقير "الآخر" حين كان ينعت "طبق الكلب" الطابق العلوي على الطراز الأوروبي الذي بناه أحد المالطيين قرب ربض زويلة بدار ذلك "الكلب المالطي الكافر والوسخ" ودخلنا مرحلة التفاعل مع الآخر و الإستفادة من خبرته ومعرفته في "التهيئة العمرانية" والتخطيط المعماري.وهذا ما وقع بالخصوص في مرحلة ما بعد الحماية التي شهدت هي الأخرى تحوّلات هامّة في المجال المورفولوجي للمدينة العتيقة التي أصبح ينظر إليها من طرف خبراء الصيانة والتخطيط العمراني على أنّها مجال له مشاكل تحضّر خصوصيّة يصعب فضّها بواسطة أمثلة التهيئة العمرانيّة بفعل أنها مدن تاريخية كانت لها بالأساس وظيفة مدافعة وحماية بدلا من أن تكون فضاء سكن وعيش وإنتاج للموارد.

فالديار التقليدية بطرازها المعماري العربي الإسلامي تطرح مشكلة التهيئة ومقاومة الرطوبة، بحسب تقدير Pompei[27]، كما **أن تعايش الحيوانات والآدميين داخل الدار العربي مع الضيق والازدحام يفرز مشاكل صحيّة يتفاقم أثرها مع ندرة الماء المشروب داخل الديار وغياب قنوات التصريف الصحّي وصعوبة تمرير الطرقات والمرافق وتركيز الخدمات بحكم ضيق الأزقة**

[27] Pompéi, Stephano, *Problèmes d'urbanisme dans le Sahel*, dans « *Les cahiers de Tunisie* » n° 47-49, 3ème et 4ème trimestre 1964, pp 147-163.

و الدروب والتوائها.فضلا عن الشكل الهندسي للديار الذي لا يساعد على تنظيم المجال الحضري ويجعل منه نوعا من "الفوضى الحضرية" أو المتاهة العمرانية رغم ما يسجّل داخل هذا النمط التقليدي من غياب الفوارق الاجتماعية التي تترجم إلى تعارضات في نمط بناء الدار.فالديار داخل مدن الساحل وقراه يبدو و كأنّها لا تتغير Immuable و في حالة سبات وسكون، كما أن التباين ضعيف فلا يوجد فرق كبير يلمس داخل المجال بين الفقير والغني ناهيك أنّ الأغنياء والميسورين في تلك الفترة لا يسعون إلى إظهار مظاهر ثروتهم من خلال تزويق واجهة الدار وتزيينها أو طريقة بنائها. و يضيف S. Pompei قائلا أن ظاهرة "الفيلا" في أواسط الستينات القرن العشرين لم تغيّر كثيرا من ذهنية "الساحلي" وممارساته مع المجال السكني ولم تقطع مع نمط العائلة التقليدية ولم تقدر على إزاحة دور المرأة داخل الدار العربي كما أن أشكال السكن Les manières d'habiter ما زالت في تلك الفترة محافظة على طابعها القروي العشائري والتقليدي، و هو ما دعمته دراسة أخرى في أواخر السبعينات بجهة الساحل التونسي حيث بيّنت تواصل الذهنيات السابقة في نمط السكن والسكنى أو بروز أشكال تأليفية من النمط التقليدي والنمط الغربي الوافد[28] رغم ما شهدته جهة الساحل بعد استقلال البلاد من تغيّيرات مورفولوجية ومادية هامة مسّت فضاءات النواتات القديمة للمدن والقرى حيث ارتقى جانب كبير منها إلى مصاف البلديات وتعمّمت أشكال التهيئة العمرانية وتيّسرت مسألة الحصول على قروض لبناء المساكن أو تحسينها وتوسيعها وانتشرت مرافق العيش من ماء وقنوات صرف صحي ونور كهربائي ومدارس ومرافق اجتماعية و نواتات اقتصادية[29] وتهيأت ظروف لاكتشاف صفة المواطن المتحضّر Le citadin citoyen.

وهنا يتساءل المرء في خصم تأثيرات الفترة الاستعمارية على ديار المدينة العتيقة وأمام ما يشاهد اليوم من محافظة الديار على طابعها التقليدي مع انتقاء

---

[28] Tyssen, T., *Le rapport quotidien à l'espace habité,* op. cit. pp 149-207.

[29] Lamine, R., *Villes et citoyens du Sahel central*, Tunis, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Sousse, l'Or du Temps, 2001 deuxième partie : les transitions vers la citadinité 183-390.

CF aussi

Despois, J., *La Tunisie oriental Sahel et basses Steppes*, *Etude géographique*, Paris, PUF, 1955.

Despois, J., *Essai sur l'habitat rural dans le sahel Tunisien* dans « *Annales de Géographie*, 1931, pp 259-274.

بعض مظاهر التجديد التي تتجلى خاصة في المفردات المستعملة في نعت الدار ومحتوياتها (حلّت لفظة "كوجينة" محل نوالة أو دويرة) وفي تبدل أثاث الدار والكيفية التي يملأ به فراغها ودخول عناصر جديدة في البناء كالبلّور والقرميد والاسمنت و الجليز العصري والرخام وطلي جدران الدار بالرش واستعمال تزويقات جديدة مخلّة بالنسيج العمراني العربي الإسلامي عن عمق التثاقف الذي حصل هل هو تلاقح métissage أم استيعاب أنمطة وافدة ؟ هل تتفرد مدينة المهدية بميزات محدّدة ؟

يبدو أنّ الفترة الاستعمارية لم تترك تأثيرا ذي بال سوى في بعض أجنحة المدينة المعروفة قديما برصيف انجلترا ورصيف إيطاليا فضلا عن مساهمتها في دفع بعض العائلات للإقامة خارج المدينة والإقبال على مهن أخرى كالتجارة والمهن الحرة والوظيفة العمومية. والمهم التأكيد على أن الديار لم تندمج في الآخر أو ذابت في مكونات الثقافة الوافدة بل استوعبت عناصر منها تظهر بالخصوص في التشبّه بطرق استغلال البيت و توضيبه وتأثيثه.

وخلال **العشريّات الأولى من الاستقلال بقيت المدينة العتيقة على حالها وكأنّ الزمن لم يفعل أي شيء لإخراجها من عالمها شبه الثابت** بل أنّ محاضر جلسات المجلس البلدي تبيّن أن النيّة كانت تتجه إلى تعزيز وتشجيع توسّع عمراني وحضري في اتجاه تخوم المدينة و أرباضها والإبقاء على برج الرأس" على حالة الانغلاق والتقوقع و التحصّن بمقبرتها ومناطقها الأثرية[30] فسادت رؤية

[30] بعيد الاستقلال وأثناء جلسة انعقدت يوم 14 فيفري 1958 و خلال الدرس مثال تهيئة المدينة تقرّر بعد التفاوض بإبقاء الطريق المحيط برأس المدينة على حالته إلا بعض الأماكن التي يتعذر فيها المرور وانصب الاهتمام على طرقات وأنهج شارع الحبيب بورقيبة وعلى إنشاء منازل لاستقطاب العملة الذين يتوافدون على معامل تصبير الأسماك، وأثناء جلسة 27 أفريل 1958 نادى أعضاء المجلس بتشجيع المتساكنين على السكن في مشروع سيقام في منطقة "الكورنيش" الواقعة خارج المدينة في اتجاه هيبون. و طغت في السبعينات النظرة السياحيّة حيث تقرر في جلسة 25 أكتوبر 1975 منع المرور وسط المدينة التي نعتت بالبلاد العربي "للسيارات وجعلها منطقة خاصة بالراجلين، كما درست إمكانية جعل الطريق التي تمر حول المدينة طريقا سياحيا.

وخلال جلسة 13 نوفمبر 1976 تقرر تأجيل النظر في مشروع تقدم به مهندس معماري إيطالي يتمثل في تشييد مطعم وإقامة دكاكين لبيع التحف ومقهى "تقليدي" بساحة الناظور في أعلى مستوى من المدينة العتيقة.

ويشير "الحبيب العوني" في أطروحته "نحو إعادة الاعتبار لمدينة عربية إسلامية المهدية العبيدية" إلى أنّ أعمال الصيانة والترميم اقتصرت على منطقة السوق ومنطقة الجامع الكبير الذي رمم بطريقة "خاطئة"

متحفيّة في العمليات الأولى لصيانة معالمها. وبفعل الضيق وتحسن دخل الأسر الناتج عن الحراك الاجتماعي والمهني الذي أحدثته المدرسة وتأخّر إنجاز المرافق الاجتماعية ببرج الرأس من طرقات معبّدة و ماء صالح للشراب ومد قنوات الصرف الصحّي أجبرت عديد الأسر على مغادرة المدينة العتيقة أو اختارت السكن في مناطق أخرى من المدينة تتوفر فيها المرافق والخدمات الترفيهيّة والصحيّة والتجاريّة والثقافيّة.

كما غذّت التحوّلات التي طرأت على مؤسسة العائلة "المهدوية" الرغبة أو الحاجة إلى مغادرة المدينة العتيقة. و لغاية فهم عمق هذه التأثيرات ومداها قمنا بإنجاز 20 محاورة مطوّلة ومعمّقة مع عيّنة من الأسر التي تقطن اليوم ببرج الرأس أو التي غادرتها نحو مناطق أخرى من المدينة.

ويبين الكشف الميداني الذي قمنا به أثناء معاينتنا لحالة المدينة العتيقة أنّ حالة المباني والمساكن قد تحسنت عموما[31] مقارنة بالكشف الذي أنجزته جمعية صيانة المدينة سنة 1975 وأنّ المرافق الاجتماعيّة والترفيهيّة تضاعف عددها و أنّ القيمة العقارية للمساكن ارتفعت إلى مستويات قصوى وخاصة في جهة المساكن المحاذية للبحر حيث وقع بيع بعض المنازل التي لا تتجاوز قيمتها 20 مليون من المليمات إلى زهاء 150 و 200 مليونا من المليمات.

أنجزت المحاورات خلال خريف و صائفة سنة 2004 مع عيّنة من الأسر القاطنة حاليا ببرج الرأس أو التي غادرتها وبعض من الشخصيات المحوريّة أو المخبرين (العمدة، شيوخ المدينة الذين يمثلون ذاكرة المدينة إن صح القول و مقاول بناء أفادنا بالأساس في التعرّف على معاملات البيع والشراء التي وقعت و تقع حاليا بالمدينة العتيقة التي تحوّلت من حيّ مغادرة و رحيل إلى حيّ استقطاب).

وأزيلت منه منارته وعزل عن محيطه الخارجي بطريقة مخلة لتواصل المعلم مع محيطه كما هيمنت النظرة المتحفية التي لا ترى في المدينة العتيقة سوى لكونها معبرا ومزارا للسيّاح. ويلاحظ في نفس الباب أن الاختلال و التشويه في نسيج المدينة تواصل واستمر التهديم والتخريب ذلك أنّ 15 بالمائة من المباني زالت تماما فضلا على أنّ 40 بالمائة منها توجد في حالة سيئة

الحبيب، العوني، *نحو إعادة الاعتبار لمدينة عربية إسلامية المهدية العبيدية*، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير بتونس، مرحلة ثالثة هندسة معمارية، 1984.

[31] Plan d'Aménagement Urbain de la commune de Mahdia : rapport de présentation et règlement d'urbanisme, direction régionale de l'équipement et de l'Habitat de Mahdia, Tunis, URAM, 2002.

ولضمان حدّا أدنى من الموضوعية تجنّبت محاورة أشخاص تربطني معهم صلة قرابة أو صداقة قد تؤثّر على مسارمصداقية المحاورة في مسائل قد تعتبر عند البعض بمثابة "الأسرار العائليّة".

و لحسن سير المحاورات توخيّت وسائل إقناع واستنطاق وتخاطب تتراوح بين الأسئلة التحريضيّة والأسئلة الإنعاشيّة Les questions relances وأسئلة رجع الصدى.

وتحتوي العيّنة على خليط من أسر البحّارة وصغار الموظّفين والحرفيين والمهن الحرة أي بالأساس الأسر والعائلات التي تمثل ديار الفئات الوسطى والدنيا وتركت ديار الفئات المرفهة والميسورة إلى البحث لاحقا.

ولقد جمعت البيانات التي وفّرتها المحاورات والمقابلات في العناصر التالية:

6. الدار و التحوّلات العائليّة

تبيّن من خلال المقابلات أنّ هناك علاقة تأثّر وتأثير بين الدار كفضاء عيش والتحوّلات التي طرأت على مؤسسة العائلة وعلى بنية أدوراها.ولقد شكّل ضيق الديار القديمة عاملا أساسيّا في فرقعة العائلات الكبيرة العدد مع تحسين مستوى المعيشي للأسر المقيمة ببرج الرأس مع ما أفرزه من **نموّ قيمة الفرد و الفردانية**.

التغيّرات الأولى التي طرأت على ديار الأسر التي وقع استجوابها تمت بإضافة غرفة أو تحسين المطبخ وبيت الاستحمام وإضافة طابق علوي، لكن مع المحافظة على استغلال مشترك للكهرباء والماء المشروب ثم تلتها مرحلة ثانية اختار فيها المتزوجون الجدد من الأسر القاطنة بهذه الديار بناء أو تسوّغ دار خارج المدينة العتيقة.

و لقد شكّلت مشاكل الميراث عنصرا بارزا في إهمال الديار القديمة أو في دفع ببعض الأسر إلى هجران المدينة العتيقة تجنّبا للخلافات العائليّة التي تصل في بعض الأحيان إلى مستوى التقاضي كوضعية المستجوب "م.ج" الذي تحاورنا معه بالنيابة عن أبيه الذي أجبر على ترك داره أو بالأحرى دار أبويّه إلى أخوته البنات اللاّتي استغلن فترة غيابه عن المهدية للعمل بمعمل بجهة جبل الجلود خلال السبعينات وضخُّمن من مشكلة إهمال أمّهم التي أضحت في وضعية صحيّة تحتم الاعتناء بها التي كانت وقتئذ تسكن معهم.

وفي أول الأمر اتفقت البنات على تسويغ المنزل مع ترك أدباش أخوهم الوحيد في غرفة من البيت ثم ساءت أمور أب مستجوبنا وخسر عمله بتونس ومرض بمرض عضال في رئتيه ألزمه على ترك عمله السابق والاشتغال بمهنة الحراسة في أحد نزل المهدية. فاستغلت البنات هذه الحالة ليطالبن باقتسام الدار ونظرا لضيقها أقرّ الخبير العدلي الذي كلّفته المحكمة بعدم قابليّة الدار للتقسيم وصدر حكم ببيع الدار أو ببيعها لأحد الأطراف المتنازعة. ولّما كانت الحالة الماديّة للبنات أحسن من وضعية أخيهم اشترت إحداهن الدار فقبل الأخ مرغما بحصتّه التي أضاف عليها بعضا من المدخّرات لشراء دار في أحد الأحياء الشعبيّة في منطقة "برج عريف" خارج المدينة.

و تبيّن المحاورة أن غياب الأب المتوفى ومرض الأم الذي أفقدها دورها هو الذي حكم على الخلافات العائلية بالاستفحال والوصول إلى مرحلة الانفصال وقطع صلة الرحم.

وفي حالات أخرى تنازل الأخوة الذكور لأخيهم الأصغر "ح.ب.س" أو أخوهم المصاب بإعاقة "ح.ش" عن دار الجدود لأنه غير قادر على تسوّغ أو بناء أو شراء دار خارج برج الرأس أو يبقى يسكن مع الأم التي ترفض الخروج من دارها ببرج الرأس وتتنازل عن جيرتها.

و كما لاحظنا من خلال محاورتين أن أمر الاعتناء بدار "الجدود" الأجداد وصيانتها يقع بالتفاهم وباقتسام التكاليف في حالة الأسر مرفهّة الدخل أو تعمل بإطار التدريس في الوظيفة العمومية (حالة دار ع.س).

كما بيّنت المحاورات أن الكثير من الأسر التي وقع استجوابها ما زالت تحافظ على عادات التزاور والتضامن العائلي رغم عدم الاشتراك في السكنى. كما وجدنا حالة استثنائية لدار "ب.ع" تمثل عائلتين يعيشان ويتقاسمان نفس الدار أخ أو أخيه أنجبا أولاد أو بنات تربط بينهما علاقات موّدة وتآزر عائلي قويّة جدا، فما زلنا نرى الأسلاف يتعاشرون بالحسنى كالأخوة ويتقاسمّن كل شيء ويفضّان المشاكل التي قد تطرأ بالقسمة والتشاور.

كما تأكد لدينا معطى يتكرّر مرّات عديدة في المحاورات أنّه بمجرد زواج أحد أفراد الأسرة المقيمة ببرج الرأس فإنه ينتقل للسكنى في دار أخرى خارج المدينة العتيقة عن طريق التسوُّغ أو الشراء أو البناء.

7. الأسباب التي دفعت بالسكان القدامى إلى الرحيل عن " برج الرأس"

تبيّن المحاورات أن أغلب المستجوبين الذين غادروا "برج الرأس" يتحسُّرون على تركهم لها إمّا مكرهين (مشاكل الميراث بين الإخوة) أو على إثر مصيبة من مصائب الدهر حلّت بهم كالوفاة المتكرّرة لأبناء أسرة أجبرت على ترك دارها لأنها أصبحت "شؤما" أو رغبة منهم في تغيير الأجواء والتمتّع بالحياة العصريّة أو في الاستقلال عن العائلة الكبرى أو بحكم العمل خارج المدينة.

كما لاحظنا وجود عيّنة تمثل حالات شاذة من مستجوبين اعتبروا أن مغادرتهم لبرج الرأس خيار شخصي وفردي ورغبة في التحرّر من التقاليد ومن سلطة العائلة ومن شغب "الحومة" وأجواء العلاقات العشائرية وفي هذا المجال عاينا وجود فئة من صغار الموظفين أو من الحرفيين الذين استغلوا ارتفاع القيمة الكرائية لديار المدينة لبيع ديارهم بمبالغ هامة والسكن خارج المدينة ولو بطريق التسوُّغ.

8. الأسباب التي دفعت بالمتساكنين الجدد إلى السكن في برج الرأس أو الرجوع إليها

بيّنت المحاورات أن المدينة العتيقة بدأت تشهد نشوء ظاهرة فئة من المحتكرين والسماسرة الذين يشترون الديار القديمة بمبالغ لا يستهان بها تتراوح قيمتها من 10 آلاف دينار إلى 16 آلاف دينار ويضعونها للبيع أويحوّلونها فيما بعد لمتاجر بيع الزرابي والمنسوجات والتحف المعدّة للسيّاح.

وفي اتجاه آخر لاحظنا وجود ظاهرة رجوع بعض الفئات المرفهّة (إطارات عليا، مهن حرة) للسكن ببرج الرأس وشراء ديار بمبالغ مرتفعة (بين 50 ألف دينار إلى 100 ألف دينار) للسكن بها أثناء العطلة الصيفية أو لتذكر رائحة الأجداد والوالديّن. و عند بحثنا عن الأسباب الكامنة وجدنا أنّ المتحمّسين أكثر لشراء دار لتلبية هذه الحاجة "الروحية" هنّ البنات المتزوجّات اللاّتي وقع إقصائهن من الميراث أو شغلتهن أمور حياتيّة ومهنيّة عن مسقط رأسهم ومهد ذكريات الطفولة.

كما نجد أيضا ضمن الوافدين على المدينة السيّاح الأجانب الذين زاروا المهدية مرّات عديدة وفضّلوا الاستقرار بها بشراء دار وإعادة بناءها بطريقة تنسجم مع

مواصفات المعمار الغربي مع اقتناء جزء من العمارة العربية الإسلامية وضمن هذه الفئة نجد أن تمثيلية النساء السائحات الهائمات المغامرات تتفوّق على الرجال السيّاح.

كما عثرنا ضمن المقبلين على شراء دار ببرج الرأس البعض من أبناء المدينة ذوي الأصول العائلية فقيرة الحال والمعدمة التي يستغّل أحد أفرادها الذي تحسنت حالته أو غنم بمدخّرات من الهجرة إلى بلدان الخليج أو ايطاليا الظرفية لشراء دار "فخمة" و تعويض عائلته عن حرمان لازمها لفترة طويلة (وضعية م.م) الذي اشترى دار كانت على ملك أرملة كانت تعمل في أنشطة مريبة وتبنّت ولدا استغّل فترة وفاتها لبيع الدار التي تداول عليها منذ تلك الفترة "أواخر الثمانينيات" ثلاثة ملاّكين آخرهم "م.م".

9. تعلّق المتساكنين القدامى و الجدد بالمدينة العتيقة و بديارها

تبيّن لنا في هذا الباب أن أغلب المستجوبين أبدوا تعلّقا ماديّا وروحانيّا بالمدينة وبديارها ويقدمون عادة مبرّرات مثل الراحة والسكينة والألفة والبساطة والجيرة الحسنة وأجواء التعايش الحميميّة والتضامن وعادة يصفون الدار "بالوكر" أي المكان الذي لا يتيه عنه الشخص رغم ما يتعرّض له من أزمات أو من أسباب تجبره على السفر والمغادرة والرحيل.

لقد تمكّنا من معاينة أن هذا التعلّق بالمدينة وديارها هو وليد الزمن الحاضر لأنه لفترة سابقة غير بعيدة النزعة المهيّمنة كانت نحو الرحيل والمغادرة وهو ما عبّر عنه ممّن خيُّر البقاء ببرج الرأس رغم إغراءات السكن خارجها، حيث قالت إحدى المستجوبات زوجة "م.د" معلّم من الجيل الأول "قديما يقال لي هل مازالت تتشبثين بالسكن في برج الرأس؟ ما هو الشيء الذي يعجبك فيها" فبالرغم من أنها أنجبت أولادا و بناتا كلّهم إطارات عليا تعمل بالعاصمة تفضّل العيش في دارها التي أدخلت عليها تحسينات عديدة وفتحت نوافذ للإضاءة و التهوئة وحافظت على الأثاث القديم (السدّة، التيجان، المقصورة) وهيأت غرفة خاصة لاستقبال أحفادها وحفيداتها وغيّرت كليّا من المطبخ ومن بيت الاستحمام.

كما أتضح لنا أن البحّارة والموظّفون يمثلون الفئات الاجتماعية الأكثر تعلقا بديار المدينة وهي عناصر هامّة يمكن تثمينها في مشروع "إعادة الاعتبار" للمدينة العتيقة

لا فقط بدمجها في المسالك السياحية بل بتحسين لبنيتها التحتيّة ومنع محاولات المسخ والتشويه وإكثار من فرص الاستثمار الاقتصادي ومواطن الشغل بها.

10. ديار المهدية من المحليّة إلى الكونيّة

يحمل إعلان المهدية Déclaration du Mahdia الصادر عن الملتقى الدولي الذي أشرفت عليه منظمة اليونسكو في إطار مشروع موست MOST "المدن الصغرى التاريخية في المتوسط" خطّة طموحة لإعادة الاعتبار إلى المدينة وديارها ومعالمها تقوم بالأساس على حماية التراث الطبيعي والثقافي والتاريخي للمدينة وبعث مشروع لصيانة المدينة وإحيائها (PSMV) وتحفيز مبادرات المختصّين في العلوم الإنسانية للقيام بدراسات معماريّة عمرانيّة اجتماعيّة واقتصاديّة للمدينة العتيقة والاهتمام أكثر بالحرف التقليدية التي هي في طور الاندثار والعمل على تشريك المواطنين متساكيني المدينة والجمعيات المحليّة والجمعيّات غير الحكوميّة في مسار التنميّة والاستثمار بالمدينة.

هذا الاهتمام الدولي الذي تجسّم في إدراج المهدية كمدينة تاريخيّة ضمن شبكة مدن المتوسط و "الأجندا21" و اختيار دار من ديارها لجعلها مخبرا لدراسة تفاعل المعارف والخبرات المحليّة للمتساكنين مع الخبرات الكونية للمهندسين المعماريين التونسيين والأجانب بحيث أصبحت الدار المخبر بالمهدية La maison laboratoire du Mahdia[32] فضاء لتلاقح الأفكار والتصوّرات وممارسة العلاقة مع الآخر[33]، تدعّم محليّا بالتفكير على مستوى جهوي بمرصد حول "المدينة العتيقة بين واجبات المحافظة وضرورة التطور: مدينة المهدية نموذجا" صدرت عنه عديد التوصيات الهامّة التي ترشدنا إلى حالة "**عودة الوعي**" والمصالحة بين واضعي السياسات والمدن العتيقة التي تضررت نوعا ما في العشرينات السابقة من الإهمال والنسيان وطغيان نظرة متحفيّة سياحيّة. والتغيّر

[32] هو عبارة عن مشروع تعاون علمي بين مدرسة Nantes الفرنسيّة للهندسة المعماريّة والجامعة التونسيّة وجمعية صيانة مدينة المهدية انطلق في صائفة 1998 ليستمرّ على امتداد السنوات الأخيرة لتدارس تفاعل مكوّنات البناء "التقليديّة" والمحليّة مع ترميم دار متداعية للسقوط كانت على ملك أحد العائلات اليهودية في المهدية.

[33] Deboulet, A., Hoddé, R., *La maison laboratoire de Mahdia : un espace d'altérité*, séminaire international de Saida (Liban) 28 au 31 mai 2001.
Cf. aussi : Hoddé, R., Deboulet, A., Elsair, M., *Une maison laboratoire à Mahdia*, dans « *Archiscopie* », n° 43 octobre 2004, pp 21-22.

يلمس من خلال التركيز في هذه التوصيات على اعتبار المدينة العتيقة فضاء عيش واستثمار ومجال يمكن أو يوفّر موارد وموطن شغل ومن خلال التركيز على استغلال أحسن لمعالمها وتراثها من طرف مختصين وأشخاص (باحثين منشطين سياحيين) في صيانة المدن التاريخية والتعريف بها وعلى التفكير بجديّة في إطار تعاون وشراكة بين بلدان ضفتي المتوسط في ترجمة السياحة الثقافية على أرض الواقع وفي الاعتناء أكثر بمتساكني المدينة العتيقة. وفي هذا الإطار يتنزل مشروع MED'ACT لجمع الفضلات المنزليّة وفرزها ومعالجتها الذي يهدف إلى مساعدة البلديّة على تحسين الوضع البيئي والصحي والاجتماعي وتغيير عادات السكان في التخلّص من القمامة والفضلات المنزليّة وترشيد استخدامها ومن ثمة المساهمة في تقليص المسافات بين الفضاء العمومي (فضاء الشارع أو الحي الذي تلقى فيه هذه الفضلات المنزلية) والفضاء الخاص فضاء الدار[34].

خاتمة

حاولنا في هذا البحث المتواضع رصد المراحل الكبرى التي مرّت بها ديار المهدية منذ الفترة الماقبل الاستعمارية في تأليفها بين متغيرات الزمان وثوابت المكان ويمكن أن نخلص إلى القول أن "الديار" بمعمارها وطريقة هندستها وبنائها وأثاثها و متساكنيها ترشدنا إلى **مجتمع يتغيّر من الداخل** ولكن **يحافظ على مقومات هويته**. فرغم تسارع نسق التحولات بالمدينة العتيقة، التي تمرّ بها الديار من خلال كثرة المبادلات وعمليات البيع والشراء والهدم وإعادة البناء، فهي حافظت على **نمط حياة بقى دون تأثير كبير**. فالحياة العشائرية العائلية رغم ما اعتراها من إضعاف مازالت حاضرة وازداد تعلق المتساكنين بحومتهم "أو بجزئهم المفضل في المدينة تماشيا مع قولة "ميشال دوسرتو" أن الحي Le quartier يقاوم و يتصدى لمدينة نكرة دون روح ودون هوية[35]، وهذا الكلام لا ينطبق على مدينة مثل المهدية المعروفة بكونها مدينة ذاكرة أو **المدينة**

[34] أنجز المشروع بكلفة قدّرت بـ 356.850 دينارا ساهم فيه "الاتحاد الأوروبي بـ 292.785 ألف دينار ومقاطعة بروكسل 25.500 ألف دينار وهو ينطوي في إطار الميثاق الأرومتوسطي.
المصدر : محاضر جلسات المجلس البلدي و نشريات خاصة بالمشروع.

[35] Certeau, M., de : *L'invention du quotidien I et II, arts de faire, Habiter, cuisinier*, Paris, Gallimard, 1990.

الذاكرة.هذه الذاكرة التي تلين وتروض التحوُّلات الاجتماعية وتعدّل من حدّة سرعتها ومن عمق التثاقف الذي قد يتحوّل إلى اقتلاع ثقافي وتشويه وضياع في زخم حداثة "فائضة" لا طعم لها ولا رائحة، فهي في نهاية الأمر فجُّة ومبهمة لأنها تتعالى على راسب من رواسب الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان المتمثل في بحث الإنسان من خلال الفضاء الضيق للدار على موطن راحة وسكينة وذاكرة وانتساب.

كما مكّننا البحث من استنتاج أن الفضاء ديار "برج الرأس" هو **مخبر تلاقي أنمطة عمرانية متنوعة** تصل إلى حد التضارب والتضاد لكنّها لم تقدر على **إلغاء جوهر الدار أي العلاقات العشائرية**، أو على الاندماج كليا في الأنماط المعمارية الوافدة والدخيلة وهي ربما صفة تتُّحد فيها مدن المغرب العربي في تلاقحها المفترض مع مدن الضفة الشماليّة للبحر الأبيض المتوسّط منذ القرن السابع عشر والذي مكّنها من استيعاب أفكار وثقافات ولغات وخبرات وطرق تنظيم للفضاء والزمان دون الاندماج فيها أو الضياع في متاهاتها.

المراجع باللغة العربية

الباهي (محمد)، (1982)، من مناهج البحث في التنظيم العمراني الإسلامي، في *" مجتمع و عمران"*، العدد الأول، جانفي/مارس 1982 ، ص 40–64.

بلكحلة (عادل)، بن ريانة (رمضان)، (2003)، *طبلبة، التقليدية والحداثة في المجتمع العربي*، الجزء الأول، تونس، مطبعة توب(على نفقة المؤلفين)، الفصل الرابع : الفضاء المعماري وتكوّن حماه، ص 221– 370 .

العوني (محمد)، (1984)، *نحو إعادة الاعتبار لمدينة عربية إسلامية المهدية العبيديّة*، أطروحة مرحلة ثالثة هندسة معمارية، دورة فيفري، تونس، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير بتونس.

المراجع باللغة الفرنسية

Abdelkafi, J., *La Médina de Tunis*, Tunis, 1989.

Binous, J., *L'habitat, la femme tunisienne et le seuil*, dans « *Femme, culture et créativité* », (s. / dir) de S., Ferchiou, Crédif, 2001, pp 93-126.

Berque, J., *Médinas, ville neuves et bidonvilles*, dans « *les Cahiers de Tunisie* », n°21-22, 1er et 2ème trimestre, 1958, pp5-42.

Binous, J., *La structure urbaine et l'évolution de l'habitat dans la Médina Hammamet*, dans, *Médinas de Tunisie : Hammamet*, (s. /dire) de T., Bachrouch, Cahiers de CERES, Série Histoire, n°7, 1996, p22.

Bouhdiba, A., Chevallier, D., (S. /dir), *La ville arabe dans l'Islam*, Paris : CERES, CNRS, 1982.

Bourdieu, P., *La maison Kabyle ou le monde renversé*, dans, *Le sens pratique*, Paris, Minuit, 1980.

Brunschvig, R., *Urbanisme médiéval et droit musulman*, dans « *Etudes d'Islamologie »*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1976.

Despois, J., *La Tunisie oriental Sahel et base Steppe, Etude géographique,* Paris, PUF, 1955.

Despois, J., *Essai sur l'habitat rural dans le sahel Tunisien* dans « *Annales de Géographie*, 1931, pp 259-274.

Cantelli, M., *Essai de la typologie dans la Médina de Tunis*, Tunis, ASM, 1969.

Certeau, M., de, *L'invention du quotidien I et II, arts de faire, Habiter, cuisinier*, Paris, Gallimard, 1990.

Hamza, H.R., *les pécheurs saisonniers italiens à Mahdia (1871- 1945)*, dans « *Annuaire de l'Afrique du Nord* », tome XXX, 1991, pp 156-159

Hénia, A., *Représentations sociales de la richesse et de la pauvreté à Tunis aux* XVIII^{e} et XIX^{e} siècle, dans, « *Pauvreté et richesse dans le Monde Musulman Méditerranéen* », Publications de l'ESF, Maisonneuve et Larose, 1999.

Lamine, R., *Villes et citoyens du Sahel central*, Tunis : Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Sousse, l'Or du Temps : deuxième partie : les transitions vers la citadinité, 2001, pp 183-390.

Levi-Strauss, C., *La notion de maison*, dans, *Terrain*, 1982, pp 34-39.

Pompéi, Stephano, *Problèmes d'urbanisme dans le Sahel*, dans « *les Cahiers de Tunisie* » n° 47-49, 3ème et 4ème trimestre, 1964, pp 147-163.

Raymond, A., *Espaces publics et espaces privées dans les villes arabes traditionnelles*, dans « *Maghreb-Machrek* », 1989, pp 194-201.

Revault, J., *Palais et demeures de Tunis (XVI et XIX*), Paris, CNRS, 1971.

Saladin, H., *La vie indigène, les maisons, les palais, la mosquée, dans « Tunis et Kairouan* », Paris, 1908.

Signoles, P., *La centralité des Médinas Maghrébines: quel enjeu pour les pour les politiques d'aménagement urbain*, dans « *Insaniyat* », dossier recherches urbaines », n° 13, Janvier – Avril 2001, 2001, pp 9-44.

Simmel, G., *La tragédie de la culture*, Paris, Petite Bibliothèque Rivages, 1988.

Thiessan, X., *Les manières d'habiter dans le Sahel tunisien*, Paris, CNRS, 1981.